المحاضرة الثالثة: لغة الأنثروبولوجيا ومصطلحاتها

1. مصطلحات الإنتماء النوعي

لاحظ الإنسان بصفة عامة الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية للإنسان وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية، ولون البشرة و العادات والتقاليد والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة، وفي إطار هذا الإهتمام والتساؤل تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة، اصطلح على تسميته **بالأنثروبولوجيا** أو علم الإنسان، فما هي الأنثروبولوجيا؟ وكيف ظهرت الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته، وكتخصص أكاديمي؟ هل يوجد في القديم علم إسمه الأنثروبولوجيا؟ هل الأنثروبولوجيا وليدة القرن التاسع عشر؟ أم أنها حصيلة تراكم معرفي حتم الشرط التاريخي اكتمال معالمه وقيامه كفرع معرفي جديد في القرن التاسع عشر؟وأخيرا ما هي أهم الإتجاهات النظرية داخل حقل الأنثروبولوجيا؟.

1.1 الانثروبولوجيا:

أ. حول تحديد المفهوم

يختلف تعريف مفهوم الأنثروبولوجيا باختلاف المرجعيات الثقافية للباحثين الأنثروبولوجيين، فهناك من يستخدم مفهوم الأنثروبولوجيا كمفهوم عام ليشمل كافة النواحي الإجتماعية و الثقافية للإنسان، أي: دراسة الإنسان ككل معقد ،و دراسة إنتاجه عبر التاريخ من ثقافة و تقاليد و عادات و معتقدات، و هناك من يطلقها لتقتصر على ما هو عضوي أو حيوي في الإنسان فيستخدم الأمريكيون مصطلح الأنثروبولوجيا الجسمية، الفيزيقية Phisical Anthropology للإشارة إلى دراسة الجانب العضوي أو الحيوي في الإنسان، بينما يستخدمون مصطلح الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology ليعني مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية و الثقافية لحياة الإنسان (يدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الإنسان القديم أو حضارات ما قبل التاريخ) " . فإذا كان هذا الإهتمام بالأنثروبولوجيا كعلم يدرس الثقافة البشرية، بمعناها الشامل داخل الولايات المتحدة الأمريكية، فإن في فرنسا نجد العكس، فقد ارتبط مفهوم الأنثروبولوجيا بدراسة التاريخ الطبيعي للإنسان، و يذكر الباحث الفرنسي جان بواريه G.Poirier: أنها ظهرت أولا في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر، لتعني دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان L'histoire naturelle de l'homme ، وربما كان عالم الطبيعة الألماني جوهان بلومينباخ في رأي بواريه أيضا أول من أدخل كلمةالأنثروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما استخدمها في الطبعة الثالثة من كتابه الذي صدر عام 1795 تحت عنوان عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر"، و إذا كانت الأنثروبولوجيا علما يهتم بدراسة الثقافات و التقاليد و العادات و كل ما يتعلق بالإنسان،

يعني دراسة ذلك الكل المعقد الذي يسمى ثقافة ،فإن هذه الدراسة تحتاج إلى مادة لتقوم بتحليلها وهذه المادة توفرها الإتنوغرافيا و التي شكلت على الدوام إرهاصا تاريخيا لحقل معرفي سمي بالانثروبولوجيا.وحول مصطلح الإتنوغرافيا نجده يعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة و مجموع التقاليد و العادات و القيم و الأدوات و الفنون و المأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة بيد أن الأنثروبولوجيا تختلف عن الإتنوغرافيا، فهي لا تعتمد على أسلوب الوصف فقط، بل تتعداه إلى تحليل هذه المادة الوصفية،وإلى تركيبها بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، فهي تهتم بالدراسة التحليلية و المقارنة للمادة الإتنوغرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية و الإنسانية من حيث أصولها و تطورها و تنوعها ،وبهذا تشكل المادة الإثنوغرافية قاعدة أساسية لعمل الأنثروبولوجي، فالأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا مرتبطتان إذن و تكمل الواحدة الأخرى.

قد يكون هذا الاقتضاب المخل لا يفي بالغرض ،غير أنه يفي ببعض الغرض، وجدير بخلق إرهاص للطالب حول إشكالية تحديد مفهوم الأنثروبولوجيا بشكل عام و تحديده بحسب المرجعية الثقافية لكل مدرسة أنثروبولوجية بشكل خاص.

ب. التأصيل التاريخي لأنثروبولوجيا

تزامن تبلور حقل معرفي جديد إسمه الأنثروبولوجيا بتوالي الكتابات حول تاريخ تبلور هذا الحقل المعرفي، وذلك لتعريف بالجذور المعرفية و الأصول النظرية لهذا الحقل وباطلاعنا على عدد من الكتابات عن تاريخ الانثروبولوجيا يمكن القول بصفة عامة :أنه بالرغم من تعدد الإتجاهات في تناول هذا الموضوع، إلا أنه يمكن أن نشير إلى ثلاث مقاربات رئيسية، هناك أولا: من تناول الأنثروبولوجيا من خلال العرض لمجموعة من الرواد الأوائل لهذا العلم و المحدثين على السواء، و هناك من تطرق لهذا العلم الجديد عبر المراحل التاريخية التي مر منها و اعتبر الأنثروبولوجيا نتيجة لإسهام حضارات إنسانية،حيث لم تخلوا مرحلة تاريخية من وجود إرهاصات لفكر أنثروبولوجي ،ونحن نميل إلى العرض التاريخي الذي يوفي الفكر البشري حقه ويجعل إسهامه بعيدا عن أي نزعة ذاتية، صحيح أن الأنثروبولوجيا كعلم لم تتبلور إلا في أواخر القرن التاسع عشر، لكن وصف ثقافة الشعوب قد جدب العديد من المفكرين و الرحالة و المستكشفين و حاول بعضهم إعطاء تفسيرات لهذه الاختلافات ،و إذا كان الإختلاف لا يدرك لذات إلا عن طريق المقارنة و الإتصال. فالحروب و الرحلات التجارية و الإستكشافية و كذلك البعثات التبشيرية مثلا ساهمت في حدوث اتصال بين الشعوب، ففي الحضارة المصرية شكلت الرحلات التجارية نقطة التقاء بالأخر و التعرف عليه ثقافيا و اجتماعيا و في هذا الصدد" يكتب مودي في عرضه لتاريخ الإتنوغرافيا بأن الرحلة التي قام بها المصريون القدماء عام 1493 ق.م تعد من أقدم الرحلات التاريخية على الإطلاق ذلك حين أبحر في النيل صوب جنوب مصر أسطول مكون من خمسة مراكب، و على متن كل مركب واحد وثلاثون فردا ،و ذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شكلت آنذاك البخور و العطور،وقد نتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام إفريقيا، و تأكيد

لإقامة علاقات معهم فيما بعد، فقد صورت النقوش في معبد الدير البحري إستقبال ملك و ملكة بلاديونت لمبعوث مصري ،كما أوضحت النقوش كذلك بعض تفاصيل الصفات الجسمية لتلك الشعوب وبدا واضحا ما اتصف به أهل المملكة من تراكم السمنة بإفراط ولم يكتف الإسهام بأفكار أولية عن الأنثروبولوجيا فقط على الحضارة المصرية، بل حتى في الفكر الإغريقي نجد مادة وصفية جاءت في كتابات عدد من الكتاب الإغريق مثل الشاعر اليوناني هوميروس Homier الذي عاش خلال القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، و صاحب ملحمتي الإلياذة و الأوديسة، غير أن أشهر من نجد في كتاباته بوادر فكر أنثروبولوجي داخل الفكر الإغريقي فهو المؤرخ: هيرودوت الملقب بأب التاريخ ففي كتابه التواريخ حرص هيرودوت على تقديم كل ما يستحق التسجيل عن التاريخ الإنساني حتى زمانه، فقد قدم معلومات في تسعة فصول عن حوالي خمسين شعبا من خلال رحلاته و قراءاته وذلك إلى جانب وصفه الدقيق للحرب التي دارت بين الفرس و الإغريق إبان القرن السادس قبل الميلاد ولم يكتفي هيرودوت عند هذا الحد بل كان يصف المعتقدات والعادات و يقارن بين الشعوب و بين معتقداتها و عاداتها و في هدا الصدد يقول : وفي غير مصر يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أما في مصر فيحلقونها، و يقضي العرف عند سائر الشعوب بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم أثناء الحداد و لكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت فيطلقون شعر الرأس و اللحية".

إن المادة التي قدمها هيرودوت برأي الأنثروبولوجيين هي عبارة عن إرهاص لفكر أنثروبولوجي سيتبلور في القرن التاسع عشر، لكن إلى أي حد و كيف يمكن اعتبار هيرودوت أول باحث أنثروبولوجيا بصفة عامة و مؤسس إثنوغرافيا بصفة خاصة؟

تكمن أهمية هيرودوت في كونه استطاع في ذلك الوقت المبكر أن يطرح فكرة وجود تنوع بين الشعوب في النواحي الثقافية و السلالية و اللغوية و الدينية و العقائدية ...ولم يفت هيرودوت أن يشير إلى عناصر التبادل الثقافي و اقتباس الشعوب بعضها من بعض و هو ما سيتبلور داخل حقل الانثروبولوجيا بمفهوم التثاقف و الإنتشار الثقافي مع المدرسة الإنتشارية، وبصدد نقطة الانتشار و التثاقف بين الشعوب كتب هيرودوت أن الإغريق قد أخذوا عن الليبيين الثياب و الغناء و العربات و يقول هيرودوت في الفقرة 189من النصوص الليبية: يبدو أن ثوب و درع وتماثيل أثينا نقلها الإغريق عن النساء الليبيات غير أن لباس النساء الليبيات جلدي و أن عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان ".

وفي العصر الروماني سيبتعد الفكر عن التجريد الذي ميز الإغريق و البحث في المسائل العقلية الخالصة ويتجه نحو الواقع الملموس، و مع ذلك ينفي الأنثروبولوجيون أي وجود لإرهاصات فكر أنثروبولوجي في الحقبة الرومانية باستثناء أشعار كروس لوكريتيوس lecretuis (55-98 ق.م) التي احتوت وبلا شك بعض الأفكار الإجتماعية الهامة،إن القارئ لكتابه طبيعة الأشياء الذي نشرت ترجمته الانجليزية في سلسلةpenguin يجد أن لوكريتيوس تناول عدة موضوعات في ستة أبواب رئيسية و ضمنها أفكاره و

نظرياته عن المادة ،و حركة و شكل الأجرام السماوية و تكوين العالم مثلا، تطرق في الباب السادس خاصة إلى إلى فكرتي التطور و التقدم حيث تحدث عن الإنسان الأول و العقد الإجتماعي و نشأة اللغة ونظامي الملكية و الحكومة إلى جانب مناقشته للعادات و التقاليد و الفنون و الأزياء و الموسيقى، ويرى بعض الأنثروبولوجيين أن لوكريتيوس إستطاع أن يتصور مسار البشرية في عصور حجرية و برونزية ثم حديدية ". غير أن تدهور الإمبراطورية الرومانية صاحبه انتقال إلى العصور الوسطى والتي تحدد بنهاية الإمبراطورية الرومانية حتى عصر النهضة حسب التحقيب الأوربي، و يذكر لنا المؤرخون أنه مع نهاية القرن الخامس الميلادي تقريبا بدأت السلطة بروما في التدهور و الإنهيار ودخلت أروبا في فترة زمنية طويلة ترتبط عادة في أدهان الأوروبيين بالنكسة الحضارية و ارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة، و تعرف هذه الحقبة بالعصور الوسطى". وعلى أنها حقبة سيطرت فيها الكنيسة و الفكر اللاهوتي سيطرة مطلقة على جميع الجوانب الفكرية و الاجتماعية و الثقافية، حيث أصبحت المعرفة خاضعة لسلطة المؤسسة و معبرة عن إيديولوجيتها ممثلة في الكنيسة آنذاك المالكة للحقيقة برأي رجال الدين .

و عن صلة هذه الحقبة بالفكر الأنثروبولوجي ،يمكننا أن نستشفه من الموقع الجغرافي لأوروبا و الذي جعلها تنظر إلى الشعوب التي تقطن المحيطات الأخرى بكونها متبربة و رمز الخطيئة الأبدية. هذا الجهل بعادات تلك الشعوب و تقاليدها إضافة إلى التمركز الذاتي حول الدين المسيحي الذي فرضته الكنيسة كنموذج للخلاص جعل الأوروبيين يتجهون إلى تطهير ذاتهم عن طريق الغزو و الحروب رغم ظهور إرهاصات للكتابة حول تلك الشعوب، إلا أن الوصف جاء غالبا في إطار من التخيل و ليس المشاهدة المباشرة،فنجد مثلا أن الأسقف إيزدور ISDOR كان قد أعد موسوعة عن المعرفة في القرن السابع الميلادي وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة و عاداتهم و لكن بطريقة عفوية تتصف بالسطحية و التحيز، فقد ذكر مثلا أن قرب الشعوب أو بعدها عن أوروبا يحدد درجة تقدمها، فكلما كانت المسافة بعيدة كلما كان الإنحطاط و التدهور الحضاري مؤكدا ،وليس هذا فحسب ،بل : إنه وصف أولئك الناس الذين يعيشون في أماكن نائية بأنهم سلالات غريبة الخلقة حيث تبدو وجوههم بلا أنوف 14 ولم يتوقف البحث الإتنوغرافي الذي شكل بدايات الفكر الأنثروبولوجي في القرن التاسع عشر على الأوروبيين ولم يبقى حكرا عليهم، بل كانت هناك إسهامات للحضارة الإسلامية و على سبيل الإيضاح: نشير هنا إلى كتاب البيروني عن الهند لما حضي به من شهرة كبيرة في الدوائر العلمية الأوروبية ولما احتواه من مادة إثنوغرافية هامة ففي هذا الكتاب الذي حمل عنوان تحريرما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة وصف البيروني المجتمع الهندي من ناحية نظمه الدينية و الإجتماعية و أنماطه الثقافية ،كما اهتم أيضا بمقارنة تلك النظم و السلوكيات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان و العرب و الفرس و قد أبرز البيروني حقيقة أن الدين يلعب الدور الرئيس في تشكيل الحياة الهندية و توجيه سلوك الأفراد و الجماعات و صياغة القيم و المعتقدات.

ت. عصر النهضة التحول الكمي والكيفي في الفكر الأنثروبولوجي

تكمن أهمية عصر النهضة بالنسبة للأنثروبولوجيا في المادة الإتنوغرافية التي توافرت فيه و التي تعتبر عملا أوليا في المعرفة الأنثروبولوجية ،فمن خلال تدوين سير الرحالة وما يشاهدونه ومن خلال وصف الأقاليم و الشعوب الغير أوروبية وقف العقل الأوروبي على حقيقة الجنس البشري و على تنوعه و تنوع إنتاجه الحضاري و هو الأمر الذي جعل المؤرخ الفرنسي ميشيليهMICHELET (1798-1894) يصف عصر النهضة بأنه كشف للعالم و للإنسان و في هذا يكمن في حقيقة الأمر موضوع الأنثروبولوجيا وهدفها أيضا، لذلك يجد المؤرخ لتاريخ الأنثروبولوجيا أو الكاتب لقصتها أن لعصر النهضة ينابيعه الأنثروبولوجية الأصيلة و العميقة التي تتمثل في تحصيل المعرفة عن ثقافات لم تكن معروفة من قبل كما لا يمكن إغفال الدور الحاسم لرحلات الإستكشافية الأوروبية و لعل أهمها ذاك الحدث الذي غير مجرى التاريخ و مجرى الفكر كذلك ألا و هو اكتشاف العالم الجديد عبر رحلة كريستوف كولومبس (1481-1886)"فمن الناحية الأنثروبولوجية نجد أن مذكرات كولومبس عن رحلته و مشاهداته و اتصالاته مع أهالي العالم الجديد قد زخرت بالمعرفة و البيانات و الشخصيات الإتنوغرافية و في الحقيقة أن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل اتصفت كتابات كولومبس أيضا بميل نحو الموضوعية محاولا تقصي الأسباب وراء ما شاهده أو سمع عنه من تقاليد أو طقوس أو ممارسات يومية، وتلك صفة قلما وجدت في الكتابات الإتنوغرافية التي كانت سائدة حينذاك، ولم يتوقف إسهام الإكتشافات الجغرافية فقط عند هذا الحد بل أعاد النظر في الأحكام القيمية التي كان الأوروبيون يصدرونها على الشعوب الأخرى، وكلها كانت تتعلق بنفي آنتمائها لنفس الوحدة البيولوجية التي ينتمي إليها النوع البشري، و في هذا الصدد يشير جوزيف جيرنبرخ إلى بعض تلك التساؤلات على النحو التالي هل الشعوب التي لم تعرف من قبل و التي أمكن التعرف عليها عن طريق الإستكشافات تنتمي إلى نفس النوع الذي ينتمي إليه الإنسان الغربي، و من تم يتحتم المحافظة على أرواحها ؟ " و في ضوء ما تقدم يمكن القول أن الإستكشافات الجغرافية ساهمت جنبا إلى جنب مع الإتجاه العلمي، علاوة على سيادة المذهب الإنساني ، بل قد أثروا جميعهم و لا شك ولو بدرجات متفاوتة وفي مجالات متباينة في تشكيل منطلقات الفكر الاجتماعي النظري وفي إبراز اهتمامات جديدة في مجال دراسة الإنسان الأوروبي و غيره.

كل هذا، شجع على الإهتمام بالإنسان و بدراسته و بتطوره و تطور نتاجه الثقافي و اختلافه، فظاهرة التنوع الحضاري بين البشر الذي أبرزته و أكدته كتابات الرحالة ،جعل الأوروبيين يتجهون نحو فحص الذات و التأمل في أحوالهم،أجل فعلوا ذلك عن طريق المقارنة بين أنفسهم وبين الشعوب المكتشفة في ضوء ما ورد عنها من كتابات و أوصاف،لأنه قد ساد بصفة عامة نوع من التأملات التجريدية و الرومانتيكية عن الحيات البدائية و الطبيعية و ربما ترجع أولى المحاولات لتدوين المادة الإتنوغرافية و التنظير بشأنها إلى الرحالة الإسباني جوزيه اكوسا j'Acosa في القرن السادس عشر حينما حاول ربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، فقد افترض مثلا أن الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلا من أسيا إلى أمريكا و بذلك فسر اختلاف حضارتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك، كذلك قدم أكوسا فرضا أخر حول تطور الحضارة الإنسانية عبر مراحل معينة

،وقفت فيها أوربا بأعلى الدرج و أتت بعدها الصين في المرتبة الثانية لمعرفتها الكتابة بينما احتلت المكسيك مرتبة أدنى من ذلك، أما المجتمعات الأخرى فقد تم تصنيفها على درجات متباينة في أسفل الدرج وقد أقام أكوسا تصنيفاته على أساس معرفة الشعوب بالكتابة و القراءة.

ولم يعد الوصف كافيا بل بدأ المفكرون و الباحثون في استخلاص أفكار نظرية من تلك المادة الإتنوغرافية التي يوفرها المستكشف أو الرحالة مثلا، و لم تعد الكتابات تستمد مصداقيتها من الخيال بل أصبحت تتجه نحو البحث الميداني و كانت أهم الخطوات في مجال البحث الميداني ضمن حقل الأنثروبولوجيا تلك التي قام بها الفرنسي ميشيل دي مونتاني M.De Montaigne (1892-1532) الذي أجرى مقابلات مع مجموعة من السكان الأصليين الذين كان بعض المكتشفين قد أحضروهم إلى أوربا، و استخدم مونتاني هؤلاء الأسرى كإخباريين أي أنه جمع منهم معلومات عن العادات و التقاليد السائدة في موطنهم الأصلي و خرج من ذلك بمقولة أنه لفهم العالم لابد من دراسة التنوع الحضاري للبشر و استقصاء أسبابه، لذلك يتسنى لأوروبا أن تفهم ثقافات الشعوب الأخرى باعتبار أن لها منطلقاتها و أخلاقياتها الخاصة بها و بالتالي نجد هذا الفيلسوف الفرنسي قد طرح مقدما فكرة النسبية الأخلاقية Moral Relativity على حد تعبير ايدموند ليتش و قد كتب مونتاني يقول " بأن الوضع الحضاري الذي يصفه البعض بالهمجية ليس إلا وصفا حضاريا مماثل لما لدى الأوربيين، فمن المحتمل في نظره أن يكون المجتمع الأوربي ذاته قد مر بمرحلة مماثلة (يقصد الهمجية) الأمر الذي تطلب ضرورة فحص التطور الحضاري للمجتمع الأوربي ذاته، و إلى جانب مونتاني نشير إلى عالمين فرنسيين آخرين من مفكري القرن الثامن عشر واللذان يرى الأنثروبولوجيون في أعمالها جذورا للفكر الأنثروبولوجي النظري وهما البارون دي مونتسكيو B .de Montesquieu (1758-1689) و جان جاك روسو J.Rousseau (1778-1711).

إن أهمية مونتسكيو بالنسبة للأنثروبولوجيا الإجتماعية بصفة خاصة تبدو أول وهلة عندما تطلع على كتاب إيفانز بريتشارد بعنوان تاريخ الفكر الأنثروبولوجي فنجده يبدأ بمونتيسكيو، أما عن جان جاك روسو الذي يعتبره كلود ليفي شتراوس بمثابة المعلم و الأخ و الذي تأثر به تأثرا كبيرا وهو ما سنوضح فيما بعد فقد جاء فكره مناقضا لمونتيسكيو و غيره من فلاسفة عصر الإستنارة المتفائلين و الذين اعتقدوا في التقدم ،فقد رأى روسو أن الإنسانية تسير نحو طريق مسدود و لا مجال نحو التقدم و الكمال و مع ذلك تحتل كتابات روسو مكانة هامة عند التأريخ للأنثروبولوجيا في القرن الثامن عشر نظرا لما تضمنته من تناول للمادة الإتنوغرافية عن الشعوب المستكشفة (أو ما اصطلح على تسميتها آنذاك بالمجتمعات البدائية) في إطار من المقارنة مع المجتمعات الغربية و الخروج ببعض الأفكار و الأطر النظرية في فهم مسار التاريخ الإنساني ككل و تحديد مراحل تقدم البشرية ، و في هذا الصدد تميز روسو و لا شك عن معاصريه من ناحية أن تفكيره في التاريخ لم يكن مقيدا بحدود حضارية أو زمنية ،و لعل من الأشياء الهامة في كتابات روسو من وجهة نظر

الأنثروبولوجيا أنه استطاع أن يخلص نفسه من التحيز الثقافي لمجتمعه، و أن ينقد قيمه بينما يشيد و يستحسن طرق حياة الشعوب بالمجتمعات الأخرى و يعتبر كتابه العقد الاجتماعي le contrat sicial من بواكير الكتابات الأنثروبولوجية".

ث. مرحلة النشأة الأكاديمية

لن نتحدث الآن عن امتداد لإرهاصات فكر أنثروبولوجي داخل كتابات الرحالة و الأركيولوجيين و الفلاسفة، بل سنتحدث عنها كعلم أكاديمي و عندما نقول علم يعني علم له ظواهره الخاصة التي يدرسها و له مناهجه التي يستعملها في إقامة البراهين و إنشاء الفروض، إن الأنثروبولوجيا بدأت تحقق هذا المسعى نظرا لتوفر الشرط التاريخي و الإطار النظري و الأزمة المعرفية الضرورية لقيام أي علم من العلوم ،فرغم كون الأنثروبولوجيا لها جذور تاريخية "إلا أنها اتخذت لنفسها طابعا أكاديميا متخصصا، و بدأت في بلورة موضوعاتها، و مناهجها المميزة في القرن التاسع عشر و خلال النصف الثاني منه على وجه التحديد ".

لقد كان كل شيء يتجه نحو العلمية لقد أصبح القرن التاسع عشر عصر العقل و التجربة فلا إيمان بحقيقة مطلقة متعالية على الواقع ولا وجود لواقع منظم خارج حدود العقل فكل شيء يمكن ضبطه عن طريق الرصد و الملاحظة الدقيقة و في هذا الصدد يقول براون بأنه قد" ساد الإعتقاد في هذا القرن بأنه في حالة ظهور بعض الإنحرافات أو مظاهر من التناقض في نظام الطبيعة ،فإنه يمكن التوفيق بينهما بمزيد من الدقة و من الرصد و التجربة ".

لقد كان للنزعة العلمية التي عرفتها أوروبا نتيجة للثورة الفرنسية و تضافر مجموعة من العوامل السياسية الممثلة في الثورة الفرنسية وعوامل اقتصادية ممثلة في الثورة الصناعية وعوامل فكرية ممثلة في الثورة العلمية التي جاءت لسد الثغرة المعرفية التي خلفتها السلطة الكنسية لرجال الدين على الفكر ،وحينما أقول ثورة علمية لا أشير فقط إلى ذلك اللفظ المبتذل في الأدبيات الكلاسيكية والذي يقصر الثورة العلمية على القرن الثامن والتاسع عشر فقط ،بل أطلق لفظ ثورة علمية ليشمل ذلك الحدث العلمي المثير الذي انطلق مع كوبرنيكوس وديكارت والذي أعلن معه ميلاد الإنسان الحديث الذي بدأ ينزل الأشياء من عليائها ويشكك في الثابت والمتحرك ،باحثا عن قوانين تباته وحركته.

كان العامل الحاسم الشرط التاريخي و الإطار النظري المتراكم الذي بلور هته النزعة العلمية، التي نادى بها مجموعة من العلماء" و يجدر التنويه هنا بدعوة أوكست كونتA .Comte (1798-1857) إلى إنشاء علم وضعي لدراسة شؤون الإجتماع الإنساني، كان هذا كله بمثابة علاج لحالة الفوضى السياسية و الأخلاقية و العقلية التي سادت المجتمع الفرنسي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى الفقرة التي

كتب فيها كونت دروسه الوضعية"، منذ ذاك الوقت بدأ الإنكباب حول دراسة الإنسان و اكتشافه و اكتشاف تقاليده وعاداته، لكن أي إنسان وجهت إليه الأبحاث؟ هل هو الإنسان الأوروبي؟!

كان توجيه الأبحاث يستهدف دراسة الأخر المختلف عن الأوروبي، و قد رسمت الكتابات التخمينية التي سبقت الحقبة التي سنتكلم عنها الآن و التي تميزت بنظرة عنصرية تقيم أحكامها على أساس نزعة دينية تفاضلية تصف الأوربي المسيحي بأنه عرق نقي عكس ذاك الإنسان الذي و جهت إليه الأبحاث بوصفه بدائي متوحش و يحمل الخطيئة الأولى و الأبدية.

و الآن سنتطرق لأولى بدايات الفكر الأنثروبولوجي بمعناها الأكاديمي، والتي ستتبلور في إطار الجمعيات والرابطات والدوريات العلمية والمجلات التي تعنى بالأنثروبولوجيا والتي ساهمت في نشر الوعي بأهمية الفكر الأنثروبولوجي بوصفه علما قادما وسيسد ثغرة من ثغرات الفكر البشري، والتي ستساعد على فهم الإنسان وثقافته، ثقافة هذا البدائي، البربري و المنحط،" و يجدر التنويه بأن رابطة تقدم العلوم التي أنشئت في بريطانيا عام 1846 ومثيلتها في أمريكا التي تكونت عام1952 قد أديا دورهما في عرض القضايا والمسائل الأنثروبولوجية و مناقشاتها ،كما عززت الإتجاه القائل بإمكانية قيام علم مستقل و متخصص في تلك القضايا، ولم يقتصر الأمر على قيام جمعيات بفرنسا و انجلترا و أمريكا فحسب ،بل نجد أن شعبية الأنثروبولوجيا قد عمت مدنا أخرى مثل موسكو ومدريد و برلين وفيينا، وتكونت على إثر ذلك جمعيات إتنولوجية بلغت حوالي أربعين جمعية في عام 1870 . ولم تقف الدعاية للعلم الجديد والمساهمة في قيامه واستقلاليته على الجمعيات والرابطات ووسائل الإعلام بل امتد ذلك إلى المعاهد الأكاديمية و إلى الحكومات التي كانت تهدف إلى استفادة عملية من تلك الأبحاث أكثر منها ثقافية ولم يقتصر تطور الفكر الأنثروبولوجي في المرحلة التي اتجه فيها نحو الأكاديمية على وسائل الإعلام و المعاهد والدوريات فقط بل تطور موازاة مع ذلك بين ما" يقدمه الرحالة من معلومات وما يصل إليه المفكرون من نظريات".

وقد كانت أولى الأبحاث الأنثروبولوجية موجهة للإشتغال حول مفهوم الثقافة و تصنيف الثقافات وكيفية حدوث طفرات تؤدي إلى التطور وكانت الإنطلاقة باستلهام مفاهيم تبلورت داخل حقل الطبيعيات كفكرة التطور عند تشارلز داروين، وكان سؤال الإنطلاق: كيف نشأت حضارات العالم وتطورت؟ هذا السؤال الكلاسيكي تبلور و أعاد نفسه داخل مناخ فكري تطوري في إطار المدرسة التطورية لكن الإجابة على هذا السؤال لم تتوقف على ما قدمه التطوريون، بل أدت إلى إفراز إتجاهات أخرى كالإتجاه: الانتشاري، الوظيفي، والبنيوي.